ربما هو اقتصاد إسلامي، وربما هو وسطي!

أماني آل علي

مستشارة أعمال وشريكة إدارية في مشورة ستيت

للتواصل مع مشورة ستيت: consulting@mashurastate.com

يمكنكم أن تقولوا أن هذه مقدمة:

مازلت أتذكر التعريفات الأولى التي أعطيت لي عن الاقتصاد الإسلامي، أذكر وقتها أنني لم أكن على قدر من التمكن باللغة العربية كما كنت عليه قبل حصولي على شهادة البكالريوس، ولكنني ولأنني تعلمت طوال سنوات حياتي باللغة العربية كان كل شيء باللغة العربية مذهلاً وحتى الاقتصاد. والشيء الذي أذكره بالوضوح نفسه هو ما قاله الدكتور طارق عبدالله في إحدى محاضرات النقود والبنوك. الدكتور طارق عبدالله هذا أحد أكثر المحاضرين تأثيراً على طلابه ومستمعيه. بتأثر وتساؤلين غريبين طرح الدكتور طارق عبدالله علينا السؤال هذا "كيف يكون الدجاج إسلامياً؟"، وذلك عقب نقاش لكثرة وصف العرب والمسلمين للمنتجات والشركات بالإسلامي. فمثلاً هناك البنك الإسلامي ـ الذي نعلم جميعاً أنّه في حقيقته لا يمت للإسلام بأي صلة، وكثيرٌ من المنتجات التي توصف بأنها إسلامية، ففعلاً كيف يمكن للدجاج أن يكون إسلامياً؟ وما هي حاجة البنك لأن يسمى إسلامي؟ ولما يبعوننا كل ما يوصف بأنّه إسلامي؟.

الأمر هذا كله ينقلني لموضوعي مباشرة، ما هو الاقتصاد الإسلامي في حقيقته؟ لما هو اقتصاد إسلامي؟ أو لماذا سمي بالإسلامي؟

سأعرفه لكم كما عرفه باحثوه ومن ثم سنرى إلى أين يأخذنا هذا كله:

يرى المرحوم الدكتور محمد عبدالله العربي الاقتصاد الإسلامي على أنّه:

مجموعة من الأصول العامة التي نستخرجها من القرآن والسنة لبناء الاقتصاد الذي نقيمه على أساس تلك الأصول حسب بيئة كل عصر.

عرفه الدكتور إبراهيم فاضل الدبو في كتابة الاقتصاد الإسلامي دراسة وتطبيق على أنّه:

العلم الذي يبحث في كيفية إدارة واستغلال الموارد الاقتصادية النادرة لإنتاج ما يمكن إنتاجه من السلع والخدمات لإشباع الحاجات الإنسانية التي تتسم بالوفرة والتنوع في ظل إطار معين من القيم الإسلامية والتقاليد والتطلعات الحضارية للمجتمع.

الأستاذ يوسف كامل قال أن الاقتصاد الإسلامي وبكل بساطة هو:

فقه معاملات العصر.

ولكن الأهم من هذا كله، والأهم بكثير هو معنى كلمة الاقتصاد في اللغة العربية لأنها هي التي ستنقلني للنقطة التي أريد توضيحها لكم. ولكن قبل هذا كله سنتحدث في موضوع آخر.

لننسى معاً كل ما هو إسلامي:

حاجتنا اللحوحة لتسمية كل شيء إسلامي هي حاجة غير طبيعية منبعها كما يتضح لكم جميعاً يعود لسقوط الدولة الإسلامية في القرن السابع عشر. وتراكمت منذ ذاك الوقت الحاجة للعودة للشيء الوحيد الصحيح الذي عرفته الأمة الإسلامية وهو الإسلام نفسه، ولكن ولأنّ لا إسلام حقيقي عندنا نحاول تسمية كل شيء إسلامي، ليس فقط لجلب شريحة من العملاء أو المستهلكين، ولكن لأنّنا بحق نصرح عن شيء داخلي أقوى، ونعم تستطيعون تسميته نقصاً.

لا أعلم إن لاحظتم ما يحدث حولكم كثيراً، ولكن إن أمعنتم النظر فتسكتشفون أنّ الحقيقة المعلنة للأشياء ليست كما هي. مثال، العلاقات والصداقات المعلن عنها على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة ليست علاقات كما نظن، والسعادة التي نراها على تلك المواقع أيضاً زائفة أيضاً. بدليل، حسناً لا مشكلة، الأشخاص الحقيقون ليسوا على ساحات التواصل وتحديداً الانستغرام بكثرة، فعلاقاتهم مخبأة وصداقاتهم غير معلن عنها وما يحصل في حياتهم ليس من شأننا ولكن من شأنهم. عموماً، هذا كله يذكرني بشيء قرأته في يوم ما حين قال أحدهم أن الإنسان إن لم يجد في واقعه ما يسعده سيخلق شيئاً يوحي بذلك أو هذا ما استنجته. ولكن ما علاقة هذا كله بالاقتصاد والإسلام؟ الجواب الآن..

لأنّنا نتحدث كثيراً لا عن الشرع والشارع ولكن عن الإسلام، ولأنّنا نكثر تسمية الأشياء من خدمات ومنتجات بالإسلامية أو الإسلامي، ولأنّنا نحاول إدخال كلمة إسلامي في كل شيء، ولأنّنا بشكل ما نعبر عما ينقصنا، فمعناه أنّه عندنا مشكلة، وليست مقتصرة على الاقتصاد.

ما أحاول الوصول إليه هو الآتي، نحن نؤمن بوجود الله سبحانه وتعالي، هم يؤمنون بأشياء أخرى، ليست هذه مشكلة، المشكلة حين نتواصل معهم بمسميات كالاقتصاد الإسلامي. إن لم يكن المسلمون الأوائل استخدموا مسميات كالاقتصاد الإسلامي، فلماذا تفعلون ذلك أنتم؟ أنتم الآن علي علمٍ بأنّ هذه مشكلة تخصكم وحدكم، وإسلامكم إن لم تجدوه حولكم كما يجب أن يكون فغيروه وحدكم، ولكن لا تنقلوا للعالم ذلك دعوه بيننا.

ولذلك إن أحببتم التواصل مع الغرب أو مع الاقتصاديين الآخرين بغض النظر عن مذهبهم ودينهم تواصلوا على الأساس الذي جاء به الإسلام حين قال ربنا سبحانه وتعالي" وكذلك جعلناكم أمةً وسطى"، تلك هي الآية التي قرأتها في إحدى ليالي رمضان وغيرت نظرتي إلى الأبد.

فنحن وسطيين، عدى أن معظمنا في الشرق الأوسط، نحن أمة وسطى، أي أن كل مانفعله هو وسطي ومعتدل، ولذلك فاقتصادنا هو اقتصاد وسطي ليس إلا.

اقتصادنا وسطي وليس بالضرورة أن تسموه إسلامي:

في وقت ما كتبت بحثاً نهائياً لمجاستير الاقتصاد الإسلامي وإدراة الثروات في الجامعة التي يدرس فيها الدكتور طارق عبدالله. الدكتور طارق عبدالله درست عنده مادة أثناء تحصيلي لشهادة البكالريوس، خطر لي وقتها أنّه إن كان محبوباً بالشكل هذا من جميع زملائه وطالباته والآن طلابه لما لا يكون هو مديراً للجامعة. لأنّه وكما تعلمون أنّ أفضل الأشخاص لإدارة مؤسسةٍ ما وبالطبع الشركات، هم أناس من المؤسسة نفسها. عموماً، هذا ترونّه واضحاً في آخر قائمة لأفضل مدراء تنفيذين في العالم لعالم ٢٠١٤ من هارفرد. الحقيقة أنّ معظمهم مدراء قد عملوا في الشركة نفسها لأنّهم أدرى بطبيعة المكان. والأكيد أنّ هذا لن يعجب الدكتور طارق عبدالله ولكن هي مجرد فكرة أساسها قائم على علوم الإدارة. وأعلم أن الاقتصاديين السلوكيين يعرفون تفسير هذا جيداً ولكن دعونا من هذا كله.

***قد تكونون لاحظتم الآن أن الاقتصاد يتعدى المفهوم المعتاد عند الجميع ليشمل السلوك وطبيعة الأفراد ليدخل حتى في اختيار المدراء، ولذلك طرحت الفكرة تلك في الفقرة السابقة.**

عنوان بحث الماجستير كان: اقتصاد إسلامي في دبي؟ لنرى؟!، كان عبارة عن محاولة لتأصيل تحولات المدن الاقتصاد إسلامي، أو إلى اقتصاد وسطي كما يجب أن نسميه الآن. ولأنّ البحث بشكل عام حرك جانباً من مشاعري، قررت أن أطلعكم على جزء منه:

ما هو الاقتصاد؟

وُضع الاقتصاد منذ أن أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل تحقيق ما كُلف وكُلفنا نحن بتحقيقه وهو الوصول بالإنسان إلى شيء ربما قد يتعدى الرفاهية. إن هذا يعني أن حاجات الإنسان ورغباته ومتطلباته لا بد وأن تكون مجابة، ويمكن تحقيق ذلك فقط عن طريق ما يتوفر له من موارد يمكن له من خلالها تلبية رغباته واحتياجاته. إن الاقتصاد يتعدى مفهوم النقود والثروات، هو أكبر، هو في حقيقته أعظم، لأن علم الاقتصاد يدرس في حقيقته الإنسان. إن هذا العلم بمفاهيمه الحالية وتقسيماته وُجد من أجل أن يحقق للإنسان الاستفادة القصوى من الثروات، وأيضاً ولأن الإنسان ليس بمعزل عن العالم، جاءت التجارة كنشاط اقتصادي يحقق الاستفادة القصوى من الثروات عن طريق تبادل السلع بين إنسان وإنسان.

إن علم الاقتصاد هو في حقيقته علم يتعلق بالقرارات، والخيارات، والحدود. فالقرارات إما تكون بزيادة شيء ما، وتقليل آخر، كزيادة الدخل وتقليل البطالة. والخيارات هي كمية الحلول المتاحة المتوفرة لصناع القرار حتى يتوصلوا إلى قرار إما يستوجب زيادة أو نقصان. والحدود هي بالضبط ما أوجدت علم الاقتصاد وشكلته، فلولا هذه الحدود لما استوجب وجود علم الاقتصاد. إنّنا بحاجة إلى علم الاقتصاد من أجل أن نصل إلى قرار ما، ضمن الحدود الموجودة ـ ما نعني بها هنا الموارد المحدودة ـ لنختار الأفضل. إنّنا بحاجة لأن نفهم كيف نستخدم الموارد المحدودة هذه لتشبع حاجات غير محدودة، وهنا نحن بحاجة إلى

قرارات اقتصادية نصل إليها عبر الإطلاع على خيارات عدة ضمن الحدود التي وفرتها لنا الطبيعة لنتوصل لأفضل استخدام للموارد.

وكيف يكون إسلامياً؟

لكي يكون الاقتصاد إسلامياً، لننسى كل ما قيل لنا، إنه وبكل بساطة يمكننا تحقيق اقتصاد إسلامي من خلال القرارات الاقتصادية التي نصل إليها عبر الإطلاع على الخيارات التي تقبلها الشريعة ضمن الحدود التي وضعتها الشريعة لنتوصل في الأخير إلى قرار اقتصادي يتماشى مع الشريعة ويتوافق معها. إن الخيارات التي يمكن للبشرية الإطلاع عليها كثيرة ومتعددة، خيارات المسلمين هي فقط خيارات إسلامية، أي خيارات ترتضيها الشريعة ولذلك فإن القرار لا يمكن له أن يخرج عن الشريعة، أما بالنسبة للحدود فالنسبة للشريعة حدودنا هي الحدود التي وضعها رب العالمين سبحانه وتعالى، وبالنسبة للحاجات فهي التي لا بد أن تكون محدودة. لأن خالق هذا سبحانه وتعالى خلق كل شيءٍ و{قَدَّرهُ تقدِيراً}، فلا موارد محدودة عندنا.

أتذكرون حين قلنا أن الاقتصاد وجد لأجل الإنسان ويدرس الإنسان، إذاً شكله رب العزة سبحانه وتعالى بالشكل الذي يتماشى مع حياة الإنسان في الدنيا والآخرة فلا يمكن للمسلم أن يتمتع في الدنيا بما سيتمتع به في الآخرة ولذلك فإن حدودنا الاقتصادية هُنا هي حدود للرغبات وليست كما تعارفت عليها الرأسمالية وهي في الموارد.

إننّا نثق تمام الثقة أنه لا يمكن لخالق عظيم أن يوجدنا بما ينقصنا. أي أن لا يمكن أن يخلق الله سبحانه وتعالى بشراً وبالعدد الذي نراه دون أن تتوفر مع هذه الأعداد الموارد التي تكفيهم جميعاً. ولكن ما حصل هو أنّه وبالمفهوم الخاطىء الذي انتهك الطبيعة ومواردها، وأطلق الإنسان ورغباته هو بالضبط ما خلف مشاكل اقتصادية.

ولذلك لا يمكن ولن يمكن إطلاقاً أن يوجد اقتصاد إسلامي دون أن يتم استيعاب تلك الأفكار. فالاقتصاد بشكل عام والإسلامي تحديداً هو إطار فكري يختلف باختلاف الأطر التي تشكله، ولذلك فما عند المسلمين يختلف عما عند غيرهم، وفكرهم لا بد وأن يكون مغاير لغيرهم. فالاقتصاد الإسلامي ليس كما يراه البعض متمثلا في أسهم متوافقة وأكل حلال وصكوك، إنه في الحقيقة أكبر وأضخم، لأنه لا يلامس ما أوجده الإنسان بل يلامس الإنسان، وفكره قائم على ما يتناسب ويصح مع هذا الإنسان. ولذلك وقبل أن نتطرق لما شكله الإنسان من اقتصاد لا بد أن يتطرق هو إلى فكره ليجد إن كان فيه شيء يقارب الإسلام.

والجزء الجديد سيكون:

لماذا لا يكون اقتصاداً وسطياً؟

هذه دعوة لنشر اقتصادنا بالشكل المطلوب، وبالطريقة المطلوبة. فكما تعلمون جميعاً أنّه من المجدي لنا وللعالم إزالة مسمى إسلامي، ليس لأنّ هناك من لا يتجاوب مع الإسلام ولكن لأنّ المؤسسين الأوائل وعلى رأسهم المؤسس الأول لهذه الأمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يطلق على أي شيء إسلامي، ولا حتى صحابته، ولا حتى الذين تبعوهم.

إن وجدتم من العلوم الإسلامية علم ملحق بكلمة إسلامي فهنا حديث آخر، ولكنكم تعلمون بالطبع أنّكم لن تجدوا. لذلك دعونا وللمرة الأولى نستوعب حقيقة الأشياء كما هي فاقتصادنا في حقيقته وسطي وطابعه إسلامي بحقي. ولكن لننسى كلمة إسلامي كما لم يطلق مسلمونا الأوائل كلمة إسلامي على أي علم من العلوم.

تعرفون الآن ما عليكم فعله، وتعرفون لما يجب أن نسميه اقتصاد وسطي. وتعرفون أنّنا بحاجة كما هو العالم أجمع إلى شيء وسطي، وقد تكون هذه هي الدعوة الحق لاقتصاد وسطي "إسلامي".

وعموماً، أنا لم أذهب بفكري هُنا بعيداً، فاللغة العربية في حد ذاتها تدعم ما أقول. أو لم يرد معنى الاقتصاد في اللغة ليدل على الوسطية والاعتدال والاستقامة؟، إذاً هو لا يتعدى كونه اقتصاداً وسطياً أنتجه الإسلام.

المراجع والمصادر:

- **الدكتور فرزاد فارسيو والدكتور ادوين دولن، أساسيات الاقتصاد الكلي Foundations of Macroeconomics (بي في تي للنشر: الولايات المتحدة الأمريكية)، الطبعة الثالثة، ٢٠١١.**

- **سناء رحماني وفتحية ديلمي في مداخلة بعنوان مبادئ الاقتصاد الإسلامي وخصائصه.**

- https://hbr.org/2014/11/the-best-performing-ceos-in-the-world